# نظرية النبوة عند الفارابى

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٥ —

اعتنق الفارابى ، بعد الكندى ، نظرية أرسطو فى الأحلام وقال معه إنها أثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها . ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ فى التفاصيل والجزئيات تشابها واتصالاً أكثر من هذا بين رأى الفيلسوف العربى والفيلسوف اليونانى ؛ فأن الفارابى يعتد بالميول والعواطف ويثبت مالها من أثر فى تكوين الأحلام وتشكيلها . ويرى كذلك أن للطبائع والأمزجة دخلاً كبيراً فيها . وكل تلك أفكار رددها أرسطو من قبل

بيد أن مؤسس الليسيه يجهد نفسه دائماً فى أن يبعد عن مذهبه التفسيرات الدينية والتعليلات القائمة على قوى خفية وأسرار غامضة . ونزعته الواقعية تغلب عليه فى دراساته النفسية كما استولت عليه فى أبحاثه الطبيعية والاخلاقية . لهذا تراه يرفض أن تكون الرؤي وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم . لأن الأحلام ليست مقصورة على طائفة دون أخرى ،

---

بين ألمانيا وإيطاليا يبدو ضئيلاً مزعزع الأسس أمام التطورات الأخيرة فى أوربا الوسطى ؛ وهاهى ذى إيطاليا رغم صياحها ووعيدها تؤثر أن تمد يدها إلى إنكلترا التى تمضى فى تسليحاتها البحرية والجوية بخطى الجبابرة

والخلاصة أن الفاشستية هى منبع الخطر على سلام أوربا ، ففى إيطاليا وألمانيا تضطرم النار الخفية التى قد تثير ضرام الحرب فى أية أزمة من الأزمات التى ما زالت الفاشستية تعمل على إثارتها بلا تدبر للعواقب ؛ فاذا لم تنجح أوربا فى كبح هذه النزعة الخطرة ، فالويل للسلام الأوربى والحضارة الأوربية ؛ بيد أن كل ما هنالك يدل على أن أوربا حريصة على سلامها وتراثها ، وأنها لن تنحنى أمام وعيد هتلر وموسوليني

(***)

وفى مقدور العامة والدهماء أن يدعوا التنبؤ بالغيب عن هذا الطريق ، وهذا ما لا يسلم به أحد . وهنا يفارق الفارابى أستاذه ويقرر أن الانسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعالم العلوى واختراق حجب الغيب والوقوف على المكنون والخفى . ولكن يجدر بنا أن نعقب على هذا مسرعين بأن الفارابى وإن خالف أرسطو فأنما يخالفه فى نقطة محددة ؛ ذلك لأن الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة لا يتم فى رأيه إلا لطائفة ممتازة وجمع مختار ، وإذا كان الفارابى قد وفق لحل موضوع المقامات والرؤى فلم يبق أمامه إلا خطوة واحدة لحل مشكلة النبوة . فان المخيلة متى تحررت من أعمال اليقظة المختلفة استطاعت أثناء النوم أن تصعد إلى سماء النور والمعرفة . وإذن متى توفر لدى شخص مخيلة ممتازة تمت له نبوءات فى النهار مثل نبوءات الليل ، وأمكنه فى حال اليقظة أن يتصل بالعقل الفعال مثل اتصاله به أثناء النوم ، بل ربما كان ذلك على شكل أوضح وصورة أكمل . فالنبى فى رأى الفارابى بشر منح مخيلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الالهامات السماوية فى مختلف الظروف والأوقات

هذه هى نظرية النبوة فى حقيقتها العلمية والفلسفية ، وظروفها وأسبابها الاجتماعية ، ومصادرها وأصولها التاريخية ، ونعتقد أنها الجزء الطريف والمبتكر فى فلسفة الفارابى . حقاً إنها تعتمد على أساس من علم النفس الأرسطى ، إلا أنها فى مظهرها الكامل أثر من آثار تصوف الفارابى ومعتقداته الدينية . فأن الاتصال بالعقل الفعال سواء أكان بواسطة التأمل والنظر أم بواسطة التمثيل هو قمة الصوفية الفارابية . ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن الفارابى متمش هنا مع مبدئه فى التوفيق بين الفلسفة والدين ومتأثر بتعاليم الاسلام تأثره بأفكار أرسطو . فان العقل الفعال الذى هو مصدر الشرائع والالهامات السماوية فى رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحى الذى جاءت به نظرية الأسلام : كل منهما واسطة بين العبد وربه وصلة بين الله ونبيه ، والمشرع الأول والملهم والموحى الحقيق هو الله وحده . وبهذا استطاع الفارابى أن يمنح الوحى والالهام دعامة فلسفية ، ويثبت لمنكريهما أنهما يتفقان مع مبادىء العقل ويكونان شعبة من شعب علم النفس

غير أنه قد يعترض عليه بأنه يضع النبي فى منزلة دون منزلة الفيلسوف . فأن وصول الأول عن طريق المخيلة فى حين أن الثانى يدرك الحقائق الثابتة بواسطة العقل والتأمل ، وليس هناك شك فى أن المعرفة العقلية أفضل وأسمى من المعلومات المتخيلة ؛ ولكن الفارابى فيما يظهر لا يأبه بهذه التفرقة ولا يعيرها أية أهمية ؛ وسواء لديه أن تكون المعلومات مكتسبة بواسطة الفكر أم بواسطة الخيالة ، ما دام العقل الفعال مصدرها جميعاً ، فقيمة الحقيقة لا ترتبط بالطريق الذى وصلت إلينا منه ، بل بالأصل الذى أخذت عنه ؛ والنبي والفيلسوف يرتشفان من معين واحد ويستمدان علمهما من مصدر رفيع ؛ والحقيقة النبوية والحقيقة الفلسفية هما على السواء نتيجة من نتائج الوحى وأثر من آثار الفيض الآلهى على الانسان عن طريق التمثيل أو التأمل .

على أن الفارابى بعد أن فرق فى كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة بين النبي والفيلسوف من ناحية الوسائل التى يصلان بها إلى المعرفة عاد فقرر فى مكان آخر أن الأول ، مثل الثانى ، يمكنه أن يعرج إلى مستوى الكائنات العلوية بواسطة العقل . فان فيه قوة فكرية مقدسة تمكّنه من الصعود إلى عالم النور حيث يتقبل الأوامر الآلهية فلا يصل النبي إلى الوحى عن طريق المخيلة فحسب ، بل بما فيه من قوى عقلية عظيمة . يقول الفارابى : « النبوة مختصة فى روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر فتأتى بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ؛ ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما فى اللوح المحفوظ من الكتاب الذى لا يمحى ، وذوات الملائكة التى هي الرسل ، فستبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق » [1] .

وإذا كان فى مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال بواسطة التظر والتأمل فأن النبوة تصبح ضربا من المعرفة يستطيع الناس على السواء الوصول اليه . فبتأثير العقل الفعال نبحث ونفكر وندرك الحقائق العامة ، وبتفاوت أثره فينا تختلف درجاتنا ويفضل بعضنا بعضا ، وإذا ما عظم اشراقه على واحد منا سما بنا الى مرتبة الالهام والنبوة . وعل هذا هو الذى دفع علماء الكلام الى أن يأخذوا على الفارابى ومن جاء بعده من فلاسفة الاسلام ميلهم الى عد النبوة أمرا مكتسبا . مع أن أهل الحق ، فيما يصرح الشهرستانى ، يقولون « إن النبوة ليست صفة راجعة الى النبي ، ولا درجة يبلغ اليها أحد بعلمه وكسبه ، ولا استعداد نفسه ، يستحق به اتصالا بالروحانيات ، بل رحمة من الله بها على من يشاء من عباده » [1] . ونحن لا ننكر أن موازنة الفارابى بين النبي والفيلسوف تدع باب النبوة مفتوحاً للجميع ، كما أن الفلسفة ليست مقصورة على طائفة دون أخرى . إلا أنه يخيل الينا أن الفلسفة فى رأى الفارابى ليست سهلة المنال بالدرجة التى تبدو لأول وهلة ، فلكل أن يتفلسف ، ولن يحظى بالفلسفة الحق إلا أفراد قليلون ؛ وفوق هذا فالفارابى يقرر أن النبي ينعم بمخيلة ممتازة أو قوى قدسية خاصة ، ويغلب على ظننا أن هذه القوة القدسية وتلك المخيلة فطريتان فى رأيه لا مكتسبتان وإن كان هو نفسه لم يصرح بذلك . ونحن نسلم جميعاً بأن فى نفس النبي ومزاجه كمالاً فطرياً استحق به النبوة ، وسما بسببه الى الاتصال بالملائكة وقبول الوحى . والأنبياء هم صفوة الناس وخيرة الله فى خلقه : « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » يقول الشهرستانى : « فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر ، وصفاء العنصر ، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق . فيرقيهم مرتبة مرتبة ، حتى اذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الآلهية بعث اليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً » [2]

وأخيراً اذا كان الفارابى قد استطاع التخلص من الاعتراضين السابقين فهناك اعتراض ثالث تعز الاجابة عليه ، وهو أن تفسير الوحى والالهام على النحو السيكلوجى السابق يتعارض مع كثير من النصوص الثابتة . فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم فى صورة بعض الأعراب أو أنه كانت تسمع له صلصلة كصلصلة الجرس ، إلى غير ذلك من

(١) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٢

(١) الشهرستانى ، نهاية الأقدام ، ص ٤٦٣

(٢) المصدر نفسه ؛ ص ٤٦٣

آثار متصلة بالوحى وطرائقه . ولا نظن أن هذه الآثار غابت عن الفارابى ، إلا أنه ، فيما نعتقد ، شغل بمسألة أخرى ، وعنى بأن يثبت أولاً وبالذات أن الوحى أمر ممكن ولا يخرج على المبادىء العلمية المقررة ، وبذا أصبح اتصال الروحانى بالجسمانى الذى كان يستبعده الصابئة وغيرهم مقبولاً ، وينبغى أن نلاحظ أن جل جهد الفارابى فى نظرية النبوة لم يكن موجهاً نحو أهل السنة الذين يؤمنون بكل ماجاء فى القرآن والحديث متصلاً بالوحى وكيفياته ، وإنما كان مصوباً الى تلك الطائفة التى أنكرت النبوة من أساسها ، وهذه الطائفة لم تحارب الاسلام فحسب ، بل حاربت الأديان على اختلافها . فلم ير الفارابى بداً من أن ينتصر لمبدأ النبوة من حيث هو وأن يوضحه بمعزل عن أية بيئة أو وسط خاص ، وليس بعزيز عليه بعد هذا أن يتأول ماورد من نصوص دينية تخالف آراءه أو تبعد عنها ، وقد سلك سبيل التأويل غير مرة ، فسلم بوجود اللوح والقلم مثلاً ، ولكنه فسرها تفسيراً يتفق مع نظرياته الفلكية والميتافيزيقية [1] ، ونحن لا ننكر أن الاسترسال فى التأويل قد يغير كثيراً من معالم الدين ، إلا أنه وسيلة لازمة لمن يحاولون التوفيق بين العقل والنقل . والحقيقة أن الفارابى وقف هنا ، شأنه فى نظرياته الأخرى ، موقفاً وسطاً ، فأثبت النبوة اثباتاً عقلياً علمياً غاصاً الطرف عن بعض النصوص والآثار المتصلة بها . وكأنه فى الوقت الذى منحها فيه أسلحة جديدة جردها من بعض ما كانت تعتمد عليه من أحاديث وأسانيد . والموفق مضطر دائماً لأن يستخلص من الرأيين المتقابلين مذهباً جديداً يمت إلى كل واحد منهما بصلة

ومهما يكن من شىء فلو لم يصنع الفارابى إلا أنه أظهر فى جلاء منزلة النبى السياسية والاجتماعية لكفى . وقد استطاع بهذا أن يرد على أباطيل ابن الراوندى واعتراضات الرازى . وعلى منواله سار فلاسفة الاسلام الآخرون وفسروا كثيراً من التعاليم الدينية بهذه الروح وتلك النزعة . وبوضع النبوة هذا الموضع الانسانى الاجتماعى يمكن أن تحل مشكلة الرياسة الدينية والسياسية التى شغلت المسلمين منذ القرن الأول للهجرة . وفى رأى الفارابى أن النبى والامام والملك والحاكم والفيلسوف الذى نادى به أفلاطون لجمهوريته يجب أن يقوموا بمهمة سياسية واحدة [2] . فهم واضعو النواميس والمشرفون على النظم الاجتماعية مسترشدين فى كل هذا بالأوامر الالهية . وميزتهم المشتركة أنهم يستطيعون الاتصال بالعالم الروحانى فى حال اليقظة وأثناء النوم بواسطة المخيلة أو الفكرة [3] . وفى هذا التفسير ما فيه من انتصار للاسماعيلية والشيعة بوجه عام سنرى أثره فيما بعد

(يتبع) ابراهيم مدكور

(١) الفارابى : الثمرة المرضية ؛ ص ٧٧

(١) الفارابى : تحصيل السعادة ؛ ص ٤١ — ٤٤

(٢) الفارابى : السياسات المدنية ؛ ص ٤٤ — ٥٠


انتظروا فى أول يناير :

# الـــرواية

وهى مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدرها ادارة (الرسالة)

وستعتمد فى الغالب على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والرحلات والمذكرات والاعترافات والنوادر . وسيكون دستورها : الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى (الرسالة) العقل ، وترفع القصة كما ترفع (الرسالة) المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل (الرسالة) أدب العرب

بدل اشتراكها فى السنة مؤقتاً ثلاثون قرشاً فى الداخل ، وخمسون قرشاً فى الخارج . وكل من يسدد اشتراك (الرسالة) كاملا قبل انتهاء شهر يناير ترسل إليه (الرواية) مجاناً